خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي

مقاربة تداولية في ضوء فكرة الأفعال الكلامية

Speeches of Al-Hajjaj Bin Yusef Al-Thaqafi "A deliberative approach in light of the idea of verbal actions

إعداد

د. أشرف أمين جاد أبو زيد

مدرس الأدب والنقد
كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي
جمهورية مصر العربية

ملخص البحث :

ارتبط ظهور التّداوليّة بمجموعة من التراكمات القديمة والحديثة في مجال فلسفة اللغة، وتعود جذورها الأولى إلى الفلاسفة اليونان كسقراط وأرسطو والرّواقيين لكنها لم تكن واضحة المعالم، أما المفهوم الحديث لهذا المصطلح فيعود للفيلسوف "تشارلز موريس" وتشير معظم الدراسات إلى تداخل هذا الحقل المعرفي الجديد مع حقول أخرى مثل اللّسانيّات، والسيميائية وعلم الاجتماع والإعلام والاتصال بطرائقه المختلفة. وتَهدف الدراسة إلى رصْدِ وتحليل الأفعال الكلاميَّة الوارِدة في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي في ضوء الاتِّجاه التَّداوليّ، لما تمثِّله خطب الحجاج من مصادر لغوية ثرية، تعد مَنْهلًا علميا، ومعْرفيا، ولغويا، وثقافيا، ومعينًا دَلاليًّا. فنصوصه تثيرُ العديد من التَّسَاؤلات في أذهَان القُرَّاء، وتربِط بين شبكَاتٍ من العَلاقات التي تؤدِّي دَلالات عَميقة.

الكلمات المفتاحية : الخطابة– التداولية– الأفعال الكلامية– الحجاج بن يوسف الثقفي.

Sermons of Hajj Hajj bin Yusuf Al-Thaqafi
A deliberative approach in light of the idea of verbal verbs

Ashraf Amin Gad Abu Zeid
Department of Literature and Criticism, Faculty of Literature, South Valley University, Qena, Arab Republic of Egypt
آ رسخ ز : □ drashrafamein@yahoo.com
ضشخسسصث ذخشخدش د ة

- **Abstract**

Pragmatics is related to a series of old and modern advances and accumulations in the field of philosophy of language. The first origination of pragmatics recurs to the Greek philosophers such as Socrates, Aristotle and the Elutriates philosophers. However, pragmatics did not have clear features. The modern notion of this term recurs to the philosopher "Charles Morris". Most studies indicate the interference of this new cognitive field with other fields

such as linguistics, semiology, sociology, mass-communication with all its numerous methods and several forms.

This study aims at monitoring, scrutinizing and analyzing the speech acts which appeared in the speeches of Al-Hajaj Ibn Youssef Al-Thakfy in the light of the pragmatic approach. The reason for choosing such data for this research paper is the significance of Al-Hajaj's speeches as rich linguistic sources which are regarded as scientific, cognitive, linguistic and cultural sources. Al-Hajaj's speeches provoke many questions in readers' minds. In addition, such speeches connect between networks of relations that have profound effective meanings.

Keywords: □ ش ش خ خ ذ خ د د س ش □ ش خ ر ش خ س ذ خ ش س □ ض ش س ش خ ش ت
. ض د ز خ ذ ث– ز ا د د ش ش ص س ح س خ ب ر خ ر خ ا– ز ا

المُقَدِّمَة:

يدرس الاتِّجاه التَّداوليّ عَلاقة اللُّغَة بمستَعمِليها ومؤليها، وهو راجِع إلى كوْن التداولية تهتمّ باللُّغة قيْد الاستعمال، وتهتم كذلك بكيفيَّة استِغلال السِّياق، والعلامات اللغَويَّة المختَلفة التي تخلق منَ الخِطَاب حدثًا توَاصُلِيًّا نَاجحًا، سواء أكان هذا الخطابُ حدثًا تواصيليًّا عاديًّا أم حدثًا إبداعيًّا.

وتَعَدُّ الأفْعَال الكَلاميَّة أحَد أهمّ المَفَاهِيم الَّتِي أسَّسَهَا أَصْحَاب الاتِّجاه التَّدَاوليّ بوصفِهِ إطَارًا إبستمولوجيًّا في اللّسانيَّات الحَديثَة. فاللُّغَة لا تنْحَصرُ وظيفتَها في مجرَّد نَقْل الأَفْكَار، أَو الأخْبار، أو وصف الوَقَائع والأَحداث، وإنَّمَا تتضمنُ أفْعالًا إنْجَازيَّة تفيد تَحَقُّق ما تَحمله اللُّغَة من دَلالات عِدَّة، لِذَا كَانَ البَحْث فِي (الأَفْعَال الكَلاميَّة) يعدُّ بحثًا فِي أحَد أَهمّ مرتَكَزات، وأُسس الفِكر التَّدَاوليّ، الذي يهتمّ في المقامِ الأوَّل بتحليل اللُّغَة قيْد الاستعمال؛ فيسهِم بذلِكَ كلٌّ من المُتَكَلِّم والمُخَاطَب في تحديد أبعاد الدَّور المنوط بِهِما بهدَف توصيلِ الدَّلالة إلى القارِئ، كما يُسْهِم السِّياق المقامِيّ في تخصيص الدَّلالة، وتقوم الوظيفة الإنْجازيَّة بإيضاح بعض المعانِي المُبْهَمة.

وقع اختِيار الباحِث على هذا العُنوان لِمَا لنظَرِيَّة الأفعَال الكلاميَّة من أثرٍ بالِغ في

البَحْثِ اللُغويّ اللّسانيّ المعاصِر، تِلكَ النَّظريَّة التي أوْلَت أهمِّيَّة عُظْمَى للأَفْعَالِ ذاتَ الصِّلة الوثِيقة بالمجتمع التي تُعَدُّ أفعالًا منجزة مِن قِبل الإنسان حَال نطقه بِهَا في سِيَاقَات مُحَدَّدة بطريقةٍ تجعَلُنا لَا نبالِغُ مطلقًا إذا قُلْنَا بأنَّ اللُّغةَ منظومةٌ متكَامِلة تتكفَّل بتحوِيلِ الأقوالِ إلى أفْعَال حال ذكرها ضِمن سِياقٍ مقامِيّ يسمحُ لها بذلِك، وللحاجةَ العِلميَّةَ الماسَّة لتناول ظاهِرة الأفعال الكَلامِيَّة من وجهة النَّظر اللّسانيَّة بعيدًا عن المفاهِيم والدِّراسات الفلسفيَّة والمنطقِيَّة.

اعتمدت الورقة البحثيَّة على المنهج الوصْفي التَّحليلي في استِقراء ووصفِ وتحليلِ الأفعال الكلاميَّة في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي – قيْدِ الدِّراسة – وكذلك في استنتاج ورصدِ النتائج.

تَهدف الدراسة إلى رصْدِ وتحليل الأفعال الكلاميَّة الوارِدة في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي في ضوء الاتِّجاه التَّداوليّ الذي أرسى دعائمه (أوستين)، ونهض، وتطوَّر على يد (سيرل) و(جرايس)، وقد وقعَ اختِيار الباحث على هذه الدراسة بالتَّحديد لما تمثِّله خطب الحجاج من مصادر لغوية ثرية، تعد مَنْهلًا علميا، ومعْرفيا، ولغويا، وثقافيا، ومعينًا دَلاليًّا.

كَمَا أنَّ ثراء النَّص الحجاجي–إن جاز التعبير– لُغويًّا، وثَقافِيًّا، واجتماعيًّا جعل خطبه قابلة لعِدَّة تأوِيلات ممكِنة، فنصوصه تثيرُ العديد من التَّسَاؤلات في أذهَان القُرَّاء، وترِبط بين شبكَاتٍ من العَلاقات التي تؤدِّي دَلالات عَميقة لتُعطِيَ ثرَاءً إيحائِيًّا، وهو مَا يعدُّ أحد أهمّ صعوبات البحث.

يبْدأ البحث المَوْسوم بـ (خطب الحجاج بن يوسف الثقفي: مقاربة تَداوليَّة في ضوء فكرة الأفعال الكلامية) بتَعريف الأفعال الكلاميَّة، ثمَّ عرض العوامل التي ساعدت في ظهور المضامين الخطابية عند الحجاج – بعدهَا يتناولُ البحث الشِّقَّ التّطبيقيّ حيثُ يورِدُ تحليلًا للأفعال الكَلاميَّة الوارِدة في الخطب.

التّداوليّة:

تعددت ترجمة المصطلح العلمي لهذا الاتجاه اللغوي الحديث الذي ولد ونما في أحضان الثقافة الغربية، فهناك من أطلق عليه : الذرائعية ، والنّفعية ، والاتصالية ، والتبادلية ، والسياقية ، والوظيفية ، والبراجماتية ،والبراجماتيك ، والبراغماتيك ، والمقامية ، وغيرها[١]. ثم جاءت ترجمة الدكتور (طه عبد الرحمن) التي لاقت مقبولية لدى الباحثين العرب وفي ذلك يقول: "وقد وقع اختيارنا منذ ١٩٧٠على مصطلح التداوليات مقابل للمصطلح الغربي (براغماتيقا)؛ لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيي الاستعمال والتفاعل معا"[٢].

جاء في القاموس المحيط في مادة (دول) "وتداوله: أخذوه بالدوال. ودواليك، أي: مداولة على الأمر، أو تداول بعد تداول"[٣]. وفي لسان العرب عن الزجاج: "الدولة اسم الشيء الذي يتداول، والدولة الفعل والانتقال من حال إلى حال"[٤].

أما الاصطلاح فهناك عدد من التعريفات للتداولية، وهذا التعدد ناشئ من اختلاف الموضوعات التي عالجتها، وإلى كيفية تحليل الخطاب للوصول إلى المعنى المقصود و"تداخلها مع كثير من العلوم، إذ إن جملة من العلوم قد أسهمت في تشكيل هذا الاتجاه، فهي اتجاه قد تعددت روافده المعرفية التي أمدته بجملة من المفاهيم المستقرة فيها، كالفلسفة التحليلية التي نشأت التداولية في كنفها، وعلم

---

(١) د. سامي شهاب أحمد التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيميائية، بحث ضمن كتاب: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، إعداد وإشراف: بشرى البستاني، مؤسسة السياب للطباعة والنشر، لندن، ط١، ٢٠١٢، ص٥٧.

(٢) طه عبد الرحمن: *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام*، المركز الثقافي العربي– المغرب، ط٢، ٢٠٠٠، ص٢٨.

(٣) الفيروز آبادي: *القاموس المحيط*، مادة (د. و. ل).

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة (د. و. ل).

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي
مقاربة تداولية في ضوء فكرة
الأفعال الكلامية

الدلالـة، وعلـم اللّغـة الاجتماعي، وعلم اللّغة النفسي، وغيرها"(١).

ومـن هـذه التعريفـات للتداوليـة مـا ذهـب إليـه (بيـرس Charles Pierce مـن أن التداوليـة مـذهب يتخـذ القيمـة العمليـة التطبيقيـة قياسـًا للحقيقة ، وقد أطلق مصطلح البراجماتية □□□□□□□□□□ في سنة ١٨٧٨م في مجلة البوبيـولار سـاينس مـونثلي Popular seience – Monthly وهي يعني النفعية، ، وقـد كـان لـ|(ويليام جيمس) William James. الريادة في شرحه ونشره حتى أصبحت هذه الفلسـفة تعـرف بوليـام جيمس ويعرف بها(٢).

وبعد ذلك أخذ هذا المصطلح اتجاهًا مغايرًا ليكون أحد الاختصاصات التـي تعـالج اللغـة، علـى يـد (شـارل مـوريس Charles □□□□□□الفيلسوف الأمريكي في سنة ١٩٣٨م في مقال كتبه في موسوعة علمية، قـد قسم موريس علم العلامات إلى ثلاثة:

١- علم النحو Syntati : وهو بحث العلاقة الشـكلية للعلامـات فيمـا

---

(١) معـاذ بـن سـليمان الدخيل: *منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية (مقاربة تداولية)*، نادي القصيم الأدبي – السعودية ودار محمد علي للنشر، ط١ ، ٢٠١٤، ، ص١٩. لقد نتج عن تنوع الاختصاصات، وتعدد العلوم تداخل كبير، مما أدى إلى تعدد مصطلحاتها، إذ يمكن إيجاد عدة مفاهيم تنضوى تحت مصطلح واحد يتفق على وضعه مجموعة من العلماء نتيجة بحثهم في مفردات اللغة، مما يؤدي إلى وقع تداخل دلالي للدلالة على هذه المصطلحات.

(٢) آن روبول، وجاك موشلر: *التداولية اليوم علم جديد في التواصل*، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة ، بيروت– لبنان ط١، ٢٠٠٣م ، ص٢٨، و يعقوب فام: البرجماتية أو مذهب الذرائع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص١٣١.

٨١٠
مجلة كلية البنات الأزهرية بطيبة الجديدة بالأقصر العدد الخامس ٢٠٢١م

بينهما.

٢- علم الدلالة□□□□□□□□□□ -وهو بحث علاقات العلامات بالأشياء.

٣- التداولية: بحث علاقة العلامات بمفسريها[١].

لاحظ موريس أن هناك حالات لاستعمال لغوي، تُوجهه قواعد تداولية، كالأوامر مثل: (تعال هنا)، أو (أوه)، أو تعبير مثل (صباح الخير!)، وصيغ بلاغية وشعرية مختلفة لا تظهر إلا بشروط محددة تماماً لدى مستعملي اللغة أي تعتمد دلالتها على معطيات تكون جزئياً خارج اللغة نفسها، أي المقام الذي يجري فيه التواصل هذا الذي استقر في ذهن موريس عن التداولية ولكنها ظلّت كلمة لا تغطي أي بحث فعلي[٢].

وقد نتج عن هذا التعريف تقيد لغاية المصطلح في الفلسفة التحليلية؛ لأنّه يوجد جانب للغات طبيعية، يحتاج دون شك إلى هذا الاعتماد كألفاظ إشارية أو ضمائر. ولذلك صحح ليفسون تعريف (كاراناب)□□□□□ بأنّها: "بحوث تحيل ضرورة إلى مستعملي اللغة"[٣].الذي انبثق من تفريع موريس وبعد أن وجه له مجموعة من الانتقادات. لذلك عرف (ليفسون) التداولية: "تلك البحوث اللغوية التي تحيل إلى ضرورة إلى جوانب السياق"[٤]. فالسياق هنا يراد به هوية المشاركين في الحديث، والمقاييس الزمانية والمكانية للفعل الكلامي وكذلك كل ما يظن ويعرف وما يقصده

---

(١) آن روبول، وجاك موشلر: *التداولية اليوم علم جديد في التواصل*، ص٢٩. و ستيفن ك. ليفنسون: *البرجماتية اللغوية*، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق ،القاهرة، ط١، ٢٠١٥، ص٢٥.

(٢) ستيفن ك. ليفنسون: *البرجماتية اللغوية*، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨.

(٤) المرجع السابق، ص٢٩.

الشركاء في هذا الحدث الكلامي.

وعرف (فان ديك) تحليل الخطاب التداولي بأنّه: "الذي يهتم بالعلاقات المطردة الموجودة بين بنيات النص والسياق"[١]. ويعتمد تحليل الخطاب تداوليا على تحديد مرجعيات الخطاب الخارجية، فبدونها يكون النص غامضا مبهما قابلا لقراءة متعددة بعيدة عن قصد صاحب النص.

أما(جورج يول) فقد قدم أربعة تعريفات كل تعريف يختص بجانب معين:

التعريف الأول □ التداولية: هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم[٢]، وهذا التعريف ناظر إلى كيفية الوصل إلى ما يعنيه المتكلم بألفاظه أكثر من ارتباطها بما يمكن تعينه من كلمات أو عبارات هذه الألفاظ كما لو كانت في المعجم ، فهناك دلالة غير مباشرة يقصدها المتكلم من وراء تلفظه بألفاظ لها معنى مباشر.

التعريف الثاني □ التداولية هي دراسة المعنى السياقي[٣]،وهذا التعريف ينظر إلى أثر السياق في تعين ما يقال، وهذا يتطلب النظر في الآلية التي ينظّم من خلالها المتكلم ما يقصدون قوله وفقاً لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أية ظروف.

التعريف الثالث □ التداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال[٤]،هذا التعريف ينظر إلى الآلية التي يتبعها المتكلمون للوصول إلى المعنى المقصود، فهناك مجموعة

---

(١) فان دايك: النص والسياق استقصاء البحث الدلالي والتداولي: ترجمة عبد القادر قنيني ،أفريقيا الشرق، د. ط،٢٠٠٠. ، ص٢٧٥.

(٢) جورج يول: التداولية ، ترجمة د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠١٠م، ص١٩

(٣) المرجع السابق، ص١٩

(٤) المرجع السابق، ص٢٠

من الإجراءات الاستدلالية يتبعها المتلقي كي يفهم أكثر مما يقال.

التعريف الرابع □ التداولية هي دراسة التعبير عن التباعد النفسي[١]،إن تحديد ما يقال ومالم يتم الإفصاح عنه يرتبط بـ)مفهوم التباعد)،الذي يشمل القرب المادي أو الاجتماعي.

يرى (جورج يول) أن التداولية تدرس الإشارة والاستلزام والغرض السابق، وأفعالا كلامية، وجوانب بنية الخطاب. فلم يعط تعريفاً واحدا لكل موضوعات التداولية.

وهناك باحثون عرب قدموا تعريفاً للتداولية بأنّها: "إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير التداولية من ثم جديرة بأن تسمى علم الاستعمال اللغوي[٢]. فيرى أن التداولية وظيفتها إيجاد الطرق الصحيحة للتواصل اللساني وعلى وفق هذه الطرق يمكن الحكم على أن هذا الاستعمال اللغوي ناجح أو فاشل، فتبين أسباب الفشل والنجاح.

وعرفها طه عبد الرحمن: هي الدراسات التي تختص بوصف وإن أمكن بتفسير العلاقات التي تجمع بين (الدوال) الطبيعية و (مدلولاتها) وبين (الدالّين) بها[٣].

وهذا التعريف يتفق مع التعريف الموجز للتداولية "بأنّها دراسة اللغة في الاستعمال، أو في التواصل لأنّه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق (مادي، واجتماعي، ولغوي)، وصولاً إلى المعنى

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠

(٢) مسعود صحراوي: *التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي)*، دار الطليعة ، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ص١٦وما بعدها

(٣) طه عبد الرحمن: *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام*، ص٢٤.

الكامن في كلام ما"[١].

فقد يقتصر الباحث على دراسة المعنى وليس المعنى بمفهومه الدّلالي البحت بل المعني في سياق التواصل فيعرفها بأنها دراسة المعنى التواصلي أو أثناء التواصل اللغوي ....، وقد يعرفها انطلاقًا من اهتمامه بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها في الخطاب ومنها الإشاريات بما في ذلك طرفي الخطاب وبيان دورهما في تكوين الخطاب ومعناه وقوته.. كما تعرف التّداوليّة من وجهة نظر المرسل بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب باعتبار عناصر السياق... ومن هذه الرؤى تغدو التّداوليّة في مفهومها العام هي دراسة الاتّصال اللغوي في السياق[٢].

هذا ويكاد يجمع الباحثون على أن التّداوليّة تقوم على دراسة أربعة عناصر أو جوانب هي: الإشارة والافتراض السّابق والاستلزام الحواري والأفعال الكلامية[٣].

الاتجاه التّداولي:

لجأ الدّارسون إلي الاتجاه التّداولي في البحث المعاصر لغويًّا وأدبيًّا، ليمدّهم برؤى جديدة متعددة؛ نتيجة قصور الدراسات اللّسانيّة الشكلية وإهمالها لمقاربة اللغة في تجلّيها الحقيقي أي في الاستعمال اللغويّ، حيث يرى العالم "ليفنسون" أن الأساس الأول لنشأة المنهج التداولي كان بمثابة ردّة فعل على معالجة تشومسكي للغة بوصفها شيئًا تجريديًّا أو قصرها

---

(١) محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص١٤.

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري، *إستراتيجيات الخطاب*، ص ٢١-٢٢، راضية خفيف: *التداولية في اللسانيات الحديثة*، ص٢٤٢- ٢٤٣.

(٣) محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص١٥، و الجلالي دلاش، *مدخل إلي اللسانيات التداولية*، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م، ص٤٣- ٤٤.

على كونها قدرة ذهنية بحتة دون اعتبار لاستعمالها ومستعملها ووظائفها[١].

ولكن ظهور التّداوليّة كمنهج ونظرية كان علي يد الفيلسوف الإنجليزي "أوستن" إثر صدور كتابه الموسوم بـ"كيف نصنع الأشياء بالكلمات؟"، حيث تتحدد عنده التّداوليّة على أنها جزء من دراسة علم أعم هي دراسة التعامل اللغويّ من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، حيث انتقل أوستن من المستوى اللغوي والنحوي والنفسي للغة إلي المستوى الاجتماعي ودائرة التأثير والتأثر من خلال استعمال اللغة لتحقيق التواصل، وقد ظهر بعد أوستن العديد من العلماء الذين ساروا على نهجه وعلى رأسهم (غرايس وسيرل) وتجدر الإشارة إلى أنَّ التّداوليّة لدي مدرسة أوستن ليست لها علاقة بالتيار الفلسفي الذي نشأ في أمريكا والذي يدعى الذرائعيّة، والذي يعود إلى العلماء المنظّرين للسيميائية وعلى رأسهم تشارلز بيرس، وتشارلز موريس، وجون ديوي وتختلف دلالتها حسب الحقل الذي تنبعث منه كالفلسفة واللّسانيات والاتصال...، على أنّ سمتها الغالبة تظل في توجّهها العلمي، ونتيجة لذلك تعدّدت مصطلحات المنهج التداولي وتداخلت وتنوّعت ترجماتها العربية منها النفعية والذرائعية والاتصالية والبراغماتية... [٢]، وهذا التّداخل بدوره أدّى إلى صعوبة كبيرة في وضع جامع مانع لها، حيث عكف كل دارس على تقديم تعريف بحسب اهتّمامه هو نفسه: فقد يكون اهتمام الدارس بالمعنى في سياق التواصل مما يسوّغ له تسمية المعنى التواصلي أو معنى المرسل في كيفية قدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قاله، وقد يعرفها انطلاقا من اهتمامه بتحديد مراجع الألفاظ وأثرها في الخطاب ومنها الإشارات وطرفا الخطاب وبيان دورهما في تكوين الخطاب ومعناه وقوته، كما قد يعرفها من وجهة نظر المرسل بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب، بما

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري: *إستراتيجيات الخطاب*، ص٢١.

(٢) راضية بو بكري: *التّداولية وتحليل الخطاب الأدبيّ، مقاربة نظرية*، ضمن أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح ٢٠٠٢م، منشورات جامعة عنابة، ٢٠٠٦م، ص٣٢٩.

في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية في ضوء عناصر السياق، بما يكفل له ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه، ومن هذه الرؤى المتعددة تغدو التداولية في مفهومها العام هي دراسة الاتصال اللغوي في السياق، وهذا التعريف هو ما يسمح بدراسة أثر السياق في بنية الخطاب ومرجع رموزه اللغوية ومعناه كما يقصد المرسل(١).

وإذا كان أغلب الباحثين قد أجمعوا على أن التداولية تقوم على دراسة أربعة جوانب هي:

الإشارة والافتراض السابق(٢)، والاستلزام الحواري والأفعال الكلامية –كما أشرت سابقا–، إلا أن اهتمامها الأكبر منصب على دراسة الاستلزام الحواري وخاصة الأفعال الكلامية، لذلك سنحاول تتبع هذين الجانبين في خطب الحجاج من خلال ما يوفّره هذا المنهج من آليات.

العوامل التي ساعدت في ظهور المضامين الخطابية عند الحجاج:

العامل السياسي:

إن الدرجة الرفيعة التي وصلت إليها الخطابة في العصر الأموي من ازدهار ورقي وتعدد للمضامين، لم يكن بفضل العوامل الدينية والثقافية والاجتماعية فقط، بل يرجع

---

(١) عبد الهادي بن ظافر الشهري: *إستراتيجيات الخطاب*، ص٢٢، و محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص١٢ وما بعدها.

(٢) الإشارة أو الإشاريات موجودة في كل لغة من لغات العالم وهي أدوات وعلامات لغوية خالية من أي معني في ذاتها، لا يتحدد معناها إلا في سياق الخطاب التداولي علي الرغم من ارتباطها بمرجع، وهي خمسة أنواع: إشارايات شخصية، وزمانية، ومكانية، واجتماعية، وخطابية. أما الافتراض السابق أو المسبق فيعني أن المتكلم يوجه حديثه إلى السامع على أساس ما يفترض سلفا أنه معلوم له. عبد الهادي بن ظافر الشهري: *إستراتيجيات الخطاب*، ص٧٩ وما بعدها. ومحمود أحمد نحلة، *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص١٥ وما بعدها.

الفضل الأكبر إلى ما أحدثته العوامل السياسية من مؤثرات ساعدت على ظهور هذا الفن بشكل مغاير لما هو عليه في العصور السابقة، فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبني أمية، وأشهرها الحزب الزبيري، والخوارج، والشيعة و"كان كل حزب من الأحزاب السياسية يتخذ الخطابة وسيلة إلى نقد خصومه، وبيان نظريته السياسية، واستمالة الناس إليها"(١) وذلك لكسر شوكة بني أمية والإطاحة بدولتهم، لذلك نجد في الصف الآخر " خطباء بني أمية يدعون الناس إلى التمسك بحبل الجماعة، وتأييد الأمويين في حقوقهم التي اكتسبوها عن آبائهم، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء، وكثيرا ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب"(٢)

إن كل هذا الظروف المحيطة بـ"الحجاج" جعلت منه "الخطيب البارع الذي يرهب العدو بالكلمة والذي يقضي على الفتنة بموعظة "(٣)،فقد كان يختار الألفاظ والعبارات بحسب المواقف السياسية التي يواجهها، فتلونت خطبه بألوان هذه الظروف وتأثرت بها، فكان خطيبًا سياسيًّا بارعًا، كان إذا خطب مهددًا خرج كلامه يفيض حرارة وغيظًا وتقريعًا وإيجاعًا، وإذا ما خطب مهدئًا كان كلامه بردَ النفوس وشفاءَ الصدور، وهذا النوع من الخطابة لا يجيء وليد تكلف أو تصنع وإنما هو "الوجدان المتقد ينساب على اللسان فيضًا خطابيًّا عندما يجيش في النفس أمر من الأمور"(٤)

---

(١) شوقي ضيف: *الفن ومذاهبه في النثر العربي*، دار المعارف، مصر، د.ت ، ص٦٨.

(٢) السابق، ص٦٩.

(٣) جمال بن محمد أبو عبد الرحمن: *سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي ماله وما عليه*، دار الكتب العالمية، بيروت ط١، . ٢٠٠٤ ، ص٤٤.

(٤) محمود زيادة: *الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه*، دار السلام الأزهر، مصر، ط،١ ١٩٩٥، ص ٣٨١.

العامل العقلي:

يمتلك "الحجاج" قدرات عقلية فائقة أفضت عنده أسلوبًا قويا ومؤثرًا يستطيع من خلاله التأثير على من يخاطبهم وإقناعهم بما يقول وإن أدى ذلك إلى قلب الحقائق، وهذا الأسلوب القوي يبرز لنا مدى قدرة "الحجاج" الخطابية وامتلاكه منطق الإقناع، في التعامل مع مثل هذه المواقف، فكان بذلك الخطيب الذي باستطاعته أن يقنع السامعين ويحرك عواطفهم فيستميلهم.

وممن يشيد بدهاء الحجاج وحسن تخلصه بالحجج، نجد "مالكَ بن دينار" يتحدث عن القدرات العقلية والخطابية التي يمتلكها "الحجاج" في التأثير في نفوس سامعيه وإقناعهم بما يحمل، فيقول: "ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع فيه أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخليصه للحجج"[(١)] ،ويقول فيه "الحسن البصري" رحمه الله: "يعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين"[(٢)].

العامل الديني:

الحجاج يتمتع بمهارات أدبية ولغوية غابت عن كثير من الخطباء في عصره، أعطته قدرة كبيرة في الخطابة والبيان والإبداع اللغوي والكلمي، وتلك القدرة الفائقة التي يمتلكها الحجاج، كان للقرآن الأثر الكبير في تنميتها وتطورها، فهو من حفظة القرآن ومن المتقنين لأحكامه، وهو يجد القرآن وسيلة لتدعيم خطاباته من اقتباسات وشواهد وغيرها، مما فتَّق فيه قوة الجدل والحجاج، لذلك نرى "معظم خطبه في الوعظ أشبه بكلام الخلفاء الراشدين ومذاهبهم في استخراج المعاني الحكيمة من الدين" [(٣)].

---

(١) النويري، أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين: *نهاية الأرب في فنون الأدب*، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ط١ ، – ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م ، م٧ ، ص٢٤٤.

(٢) شوقي ضيف: *الفن ومذاهبه* ، ص٨٥

(٣) محمود زيادة،: *الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه*، ص٣٨٢.

المدونة موضوع الدراسة:

إن معرفة الزمان والمكان للنص الأدبي يساعد القارئ على معرفة أحداث وخصائص العصر الذى قيل فيه هذا النص، والمدونة هي خطب ألقاها الحجاج بن يوسف الثقفي بعد قتله ابن الزبير بمكة، وفي فترة تولّيه حكم العراق في عهد بني أمية تحت إمرة عبد الملك بن مروان، وهي تمثل أوجّ العنف الذي بلغته الخطابة العربية في العصر الأموي؛ فقد كانت جلّها حافلة بالتهديد والوعيد، بل تعدت ذلك إلى اللعنة ممزوجة بالحقد والنّقمة التي لم تظهر فقط في كلام الحجاج، بل عمد إلى تجسيد وإظهار تلك الأحاسيس لشعب العراق بالقتل والتنكيل والسفك والنهب وضرب الأعناق والهامات، حتّى غطت على خطبه الوعظية، ولم تشفع له أبدا لدى أهل العراق، حيث قال الحسن البصريّ: "ألا تعجبون من هذا الفاجر؟ يرقى عتبات المنبر، فيتكلم بكلام الأنبياء، وينزل فيفتك فتك الجبارين، يوافق الله في قوله، ويخالفه في فعله"(١).

الاستلزام الحواري:

يعد مفهوم الاستلزام الحواري أحد الجوانب المهمة التي يعني بها البحث التداولي عند غرايس ويعنى به:" عمل المعنى، أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر/ أو قل: إنه شيء يعنيه المتكلم أو يوحي به أو يقترحه، ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"(٢)، والحوار هو: كل خطاب يتوخى تجاوب متلق معين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف أو رأي في نقطة معينة ومحددة سلفا بين المتحاورين، قريبة من هذا

(١) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب*، ج٢. وإيليا حاوي: فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، ١٩٩٧، ص٢٧٧-٢٨٨.

(٢) صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، دار قباء للطباعة، ط١، ٢٠٠٧، ص٧٨.

الطرف أو ذاك[١]. ويعد الاستلزام الحواري دلالة غير طبيعية[٢] للخطاب، تهدف للإقناع والتأثير في المتلقي على حد تعبير غرايس في قوله:" أن نقول إن القائل قصد شيئا ما من خلال جملة معينة، فذلك يعني أن القائل كان ينوي–وهو يتلفظ بهذه الجملة– إيقاع التأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطَب لنيته"[٣] وترجع نشأة هذا المبحث اللغوي إلي سنة١٩٦٧م، وبالضبط في محاضرات غرايس– وهو من فلاسفة أكسفورد المتخصصين في دراسة اللغة الطبيعية– التي ألقاها في جامعة هارفارد، حيث ضمت تصوراته لهذا الجانب من الدرس اللغوي والأسس المنهجية الذي يقوم عليها[٤]، وكانت نقطة البدء عنده أنّ الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يُقْصَد، وبهذا نشأت عنده فكرة الاستلزام الحواري[٥] الذي يرى أنه نوعان:

---

(١) محمد العمري: دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإقناع والمغالطة، مساهمة في تخليق الخطاب، مطبعة أفريقيا الشرق، ط١، ٢٠٠٢، ص٩.

(٢) الدلالة غير الطبيعية: الدلالة المرتبطة بقصد المتكلم حين يتلفظ بجملة ما، فغنه يبلغ شيئا من خلال تركيبها وفي الوقت ذاته يقصد شيئا آخر، ويحاول من خلاله التأثير في مخاطبه. ميرود سعاد: الاستلزام الحواري في سورة طه(تحليل تداولي وفق نظرية غرايس)، مجلة المدونة، م٥/ع١، ٢٠١٨، ص٣٢٠.

(٣) آن روبول، جاك موشلار: التداولية علم جديد في التواصل، ص٥٣.

(٤) محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٣٢.

(٥) القوة الإنجازية التي تواكب العبارات اللغوية كما هو معلوم هي قوتان: قوة إنجازية وقوة إنجازية مستلزمة، فالقوة الإنجازية الحرفية مدلول عليها مباشرة بصيغة العبارة في حين أن القوة الإنجازية المستلزمة تتولد عن الأولى طبقا لمقتضيات مقامات معينة. أحمد المتوكل: *آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، ط١، ١٩٩٣م، ص١.

استلزام عرفي واستلزام حواري: فالاستلزام العرفي هو ببساطة ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات ومعانٍ بعينها مهما اختلفت السياقات والمواضع اللغوية التي ترد فيها. أما الاستلزام الحواري فهو متغير دائما بتغير المقام أو السياق.

وهناك عدة تساؤلات شغلت فكر غرايس ومنها:

كيف يمكن أن يقول المتكلم شيئًا ويعني شيئًا آخر؟ وكيف يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟ وهذا ما دفعه إلى التفكير في إيجاد حلّ لمثل هذه التساؤلات. وهذا الحل أطلق عليه: مبدأ التعاون: وهو عبارة عن عناصر خفية تأتي في شكل اتفاق ضمني من قبل المتكلم والمخاطب بحيث يسهر كل طرف على السير الحسن لعملية التواصل، ويقوم هذا المبدأ على أربعة مبادئ فرعية[1].

وإذا أتينا إلى خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي فإننا نجده في العديد من المواقف يستخدم لغة ويتكلم كلامًا لا نقول إنه معاكس لما يريده، لكنه يحتاج إلى روية وإعمال فكر لفهمه والوقوف على حقيقته. كما يتحدث عن أمور وأفكار بطريقة لافتة تتطلب من السامع إعمال فكره لفهمه بسرعة وقبل فوات الأوان، ولنأخذ مثلا قوله في خطبته حينما قدم الكوفة أميرا عليها:

هذا أوان الشّدّ فاشتدّ زيم قد لفّها اللّيلُ بسواق حُطَم

(١) هذه المبادئ الأربعة هي: مبدأ الكم: وهو المساهمة في الحوار بالقدر المطلوب دون زيادة أو نقصان، ومبدأ الكيف: وهي المساهمة الصحيحة في الحوار أو الحديث، فلا يتحدث إلا الحقيقة أو ما يملك عليه دليلا كافٍ، ومبدأ المناسبة: وهو جعل الكلام ذا علاقة بموضوع الحديث أو الحوار، أما مبدأ الطريقة أو حكم الكلام: فهو عرض الكلام بوضوح وتحاشي الغموض وتقديم الحجج في شكل منظم. الجيلالي دلاش: *مدخل إلى اللسانيات التداولية*، ص٣٣. و محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٣٤.

ليس براعي إبلٍ ولا غنم ولا بجزارٍ على ظهرِ وَضَمِ[١]
قد لفّها الليل بعصلـبي أروع خراج من الدّوّيّ
مهاجرٍ ليس بأعرابي[٢]
قد شّمرت عن ساقها فشُدُّوا وجدّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا
والقوس فيها وترٌ عُـرُدُّ مثل ذراع البَكْر أو أشَدُّ[٣].

فالمتأمل في هذه الأبيات الشعرية يرى أنها تتحدث عن راعٍ يسوق إبله بغير شفقة ولا رحمة من جهة، ومن جهة أخرى يرى بأنها تتحدث عن الحرب وقسوتها، لكن معناها الحقيقي هو أن أهل العراق تنتظرهم أيام سود لأنّ راعي الإبل القاسي هو الحجّاج بن يوسف الثقفي، والمقصود بالإبل هم أهل العراق، والمعنى المراد من هذه الصور البيانية هو أن الحجّاج سيعيد أهل العراق إلى الطريق الصحيح: طريق الطاعة وطريق الحق، وكل من يحيد عنها يكون مصيره مصير الإبل الشاردة التي تضرب ضربا مبرّحا يهشّم أضلاعها لأنها خرجت عن القطيع، وكذلك حديثهم عن الحرب، فالحرب يقصد بها أن ما ينتظر أهل العراق من قتل وضرب بالسيف ونهب للأموال على يده يشبه الحرب في هولها لذلك دعاهم للاستعداد إلى ما ينتظرهم.

---

(١) زيم: اسم فرس أو ناقة، ومعناه: هذا وقت العدو فاستفرغي جهدك(اللسان: زيم). وحطم: الذي لا يبقى من السير شيئا، ويقال: رجل حطم للذي يأتي على الزاد لشدة أكله، ويقال للنار التي لا تبقي: حطمة(اللسان: حطم). والوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى بها من الأرض(اللسان: وضم).

(٢) العصلبي من كل شيء: الشديد الخلق العظيم، والقوي الصلب، والضمير في لفها للإبل، أي: جمعها الليل بسائق شديد، فضربه مثلا لنفسه ورعيته(اللسان: عصلب). الأروع: الذكي. الدوي: الفلوات.

(٣) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب* ، ٢٨٩/٢. العرّد: الشديد من كل شيء، وشبه الوتر بذراع البعير في توتره(اللسان: عرر).

وفي مواقف أخرى، استخدم الحجّاج ألفاظًا وكلمات تحمل معانيَ مغايرة تماما لمعانيها التي تستشف من السياق الذي وردت فيه، مثل قوله:" أيها الناس: من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعليّ أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه، وضعت عنه ثقله"(١).

وقوله كذلك في نفس الخطبة:" إنّ الحزم والعزم سلباني سوطي، وأبدلاني به سيفي، فقائمه في يدي ونجاده في عنقي وذبابه قلادة لمن عصاني"(٢). في هذين المثالين استخدم الحجّاج تعابير مجازية قد لا يفهم القارئ أو السامع مضمونها من خلال معناها الحرفيّ، فالسؤال الذي يطرح هنا:

لماذا تحدث الحجّاج عن الداء والدواء وماذا يقصد بكل منهما، وثقل الرأس ووضعه وذباب السيف والقلادة، فالقارئ أو السامع يجب عليه أن يفهم المقصود من هذه التعابير المجازية ويبحث عن المعنى من وراء هذا الكلام، وقوله كذلك: "يا أهل الكوفة إن الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف..." (٣).

ينادي الحجاج أهل الكوفة بما ينادى به البعيد مع أنهم ماثلون أمامه، فيستخدم حرف النداء(يا) ليستعين به على زيادة اللفت والتنبيه، ومد الصوت وارتفاعه كي يملأ جنبات المسجد، فيستحوذ على مجامع الأسماع والعقول، ويصل إلى حيث يريد:(يا أهل الكوفة)، وما يظهر من كلام الحجّاج أنّه يقدّم النصيحة لأهل الكوفة ولكن ما يفهم منه أنه تهديد ووعيد من المناجاة والتشكي لديه، لأن مثل هذه التصرفات كما يقول هي أصل الفتنة ومنبتها، وبالتالي يكون مصير أصحابها الضّرب بالسيف، أما قوله في الخطبة الوعظية:" اللهم أرني الغيّ فأجتنبه، وأرني الهدي هديً فأتبعه، ولا تكلني إلى نفسي فأضلّ ضلالا

---

(١) المصدر السابق، ٢/٢٩٢.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٩٢.

(٣) المصدر السابق ، ٢/٢٩٥.

بعيدا"[1]، فالوهلة الأولى يبدو الحجّاج وكأنه يدعو الله سبحانه وتعالي أن يصلح نفسه ويريه الحق والهدى، ولكنّ المعنى المراد من خلال المقام– وهو مقام إلقاء خطبة– هو الوعظ والإرشاد لأهل العراق لكي يتبعوا الطريق الصحيح: طريق الحق.

الأفعال الكلامية:

ترجع فكرة "أفعال الكلام" أو " نظرية أفعال الكلام" □□ □□□□□□)

(□□□□ □□□□□□إلى الفكرة التي طرحها أرسطو في الفصل الأول من كتابه "العبارة" الذي رأى فيه أن "كل جملة ذات دلالة....، لكن ليس كل جملة تقريرية إلا تلك التي فيها صدق أو كذب، و ليس هناك صدق أو كذب في كل الجمل، فالدعاء جملة، لكنها ليست صادقة و لا كاذبة و قد بقيت آراء أرسطو معمولاً بها إلى القرن التاسع عشر، و كان أول من عارض آراءه هذه الفيلسوف توماس رايد الذي طرح فكرة "العمليات الاجتماعية" أو "الأفعال الاجتماعية" في مقابل "الأفعالَ الأَحدية" (الفردية)، و يعد الفيلسوف الألماني الظاهراتي أدولف رايناخ أول من طرح فكرة "أفعال الكلام"، و أول من درسوها دراسة علمية، فقد تناول الوعد و الطلب و الأمر تحت مسمى "الأفعال الاجتماعية"، و تناول هوسيرل "الأفعال التشييئية" التي بناها على طروحات سابقة و أول من طرح فكرة "أفعال الكلام" بوهلر في كتابه "نظرية اللغة" (١٩٣٤م)، و قد رأى أن كل استعمال يظهر حتما واحدة من هذه الوظائف: التمثيل أو التعبير أو الإنشاء[2].

تستأثر الأفعال الكلامية باهتمام الباحثين، ليس فقط في المجال التداولي بل في الجوانب النظرية العامة لاستعمال اللغة، فعلماء النفس يرون أن اكتسابها شرط أساسي لاكتساب اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال

---

(١) المصدر السابق ، ٣٠٣/٢.

(٢) محمود عكاشة: *الفلسفة التداولية وعلم الكلام*، المجلة العربية مداد، عدد٣، يوليو ٢٠١٨، ص١١٦-١١٧.

اللغة أما الأنتربولوجيون فيأملون أن يجدوا فيها تفسيرًا للطقوس والرقي السحرية، في حين يرى الفلاسفة فيها مجالًا خصبًا لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلولًا للكثير من المشكلات المتعلقة بالدّلالة والتراكيب وتعليم اللغة الثانية(١).

ويعدّ جون أوستن المؤسس الأول لنظرية الأفعال الكلامية حيث رأى أنّ وظيفة اللغة الأساسية ليست إيصال المعلومات والتعبير عن الأفكار فحسب، وإنما هي مؤسسة تتكفّل بتحويل الأقوال التي تصدر ضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صيغة اجتماعية، فحينما يقول القاضي مثلا: فتحت الجلسة، يكون قد أنجز فعلًا اجتماعيًّا وهو فتح الجلسة(٢).

وقد ظهرت أفكار أوستن عن الأفعال الكلامية في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٥٥م، والتي جمعت في كتاب نشر بعد وفاته عام ١٩٦٠م، تحت عنوان:" كيف نصنع الأشياء بالكلمات"(٣) وانطلق في تحديده للأفعال الكلامية من رفضه للرأي القائل بوجود أقوال لغوية صادقة وأخرى كاذبة، إذ عدّها مغالطة وصفية بخاصة إذا نظرنا إلى الكم الهائل من العبارات التي لا تصف العالم، ولا تقرّر حقيقة، وإنما تنجز فعلا وتوقع

---

(١) محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٤٠- ٤١.

(٢) عمر بلخير: *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٥٥. و نعمان بوقرة: *اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام*، مجلة اللسانيات واللغة العربية، منشورات جامعة عنابة، العدد٢، ٢٠٠٦م، ص٣٥٢.

(٣) ألقى أوستين عددًا من المحاضرات في أكسفورد بين عامي ١٩٥٢م و١٩٥٤م، ثم ألقى اثنتي عشرة محاضرة في هارفارد في عام ١٩٥٥م ، و قد جمعت هذه المحاضرات الأخيرة في كتاب بعد وفاة أوستين عام ١٩٦١م ، و نشرت بعد وفاته في كتاب عنوانه ، □□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□ □□□ □ و ترجمه عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق. و هذه النظرية تشبه ما وقع لبنيوية دي سوسير التي تعرف عليها الباحثون من المحاضرات التي جمعها تلاميذه، و نشروها بعد وفاته، فقد طرح أوستين رؤيته في المحاضرات.

عملا[١].

وينقسم الفعل اللغوي أو الكلامي في رأي أوستن إلى قسمين:

أفعال إخبارية: وهي أفعال إخبارية تقريرية وصفية يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب.

أفعال إنجازية أو أدائية: يمكن أن تكون موفقة أو غير موفقة مثل التسمية والوصية والاعتذار والرهان والنصح والوعد... ولا تكون الأفعال الأدائية إلا إذا تحققت لها جملة من الشروط، وهذه الشروط أطلق عليها أوستن اسم شروط الملائمة[٢].هذه الشروط هي: ضرورة وجود إجراء عرفيّ مقبول اجتماعيا كالزواج والطلاق... ويتضمن هذا الإجراء نطق كلمات معينة من طرف أشخاص معيّنين في ظروف معينة وأن يكون هؤلاء الأشخاص مؤهلين لإنجاز هذا الفعل مع السبق في المشاعر والنوايا وإلزام أنفسهم به.

غير أنّ هذا التقسيم لم يقنع أوستن الذي أعاد تقسيم الأفعال الكلامية وذلك حسب قوّتها الإنجازية– لأنها تعد صلب العملية اللسانية كلها[٣]– إلى خمسة أصناف هي:

أفعال الأحكام: وهي التي تعبر عن حكم يصدره محلّف أو حكم أو قاضٍ، وقد تكون هذه الأفعال الكلامية أحكاما نهائية أو نافذة، وقد تكون تقديرية أو ظنية، مثل يبرّئ، يقدّر،

---

(١) الجيلاني دلاش: *مدخل إلى اللسانيات التداولية*، ص٢٢. و نعمان بوقرة، *اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام*، ص٣٥٢.

(٢) نعمان بوقرة: *اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام*، ص٣٥٣، و محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٤٤– ٤٥.

(٣) ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي: *النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية*، ترجمة: محمد راضي، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢، ص٣٦٠.
نعمان بوقرة: *اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام*، ص٣٥٤.

يقوّم، يشخّص، يحلّل... [١].

أفعال القرارات: وتتمثّل في اتخاذ قرار معين لصالح شخص ما أو ضدّه مثل الإذن والطرد والحرمان والتحذير... [٢].

أفعال التعهّد: وهي التي تعبّر عن تعهد المتكلم بفعل شيء ما أو إلزام نفسه به مثل التعهد والتعاقد على...، أضمن، أقسم على(القسم)، أقبل... [٣]، فالمتكلم بتفوهه بالكلام يؤسس وجوب القيام بمحتوى قوله[٤].

أفعال السلوك: وهي تشكل مجموعة متباينة ترتبط بالسلوك الاجتماعي للمتكلم حيث تدفعه إلى اتخاذ الموقف المنصوص عليه في القول إزاء المخاطب مثل: الاعتذار والشكر والتعاطف والمواساة والتحية والرجاء والتحدّي[٥].

أفعال الإيضاح: وهي التي تستخدم لتوضيح وجهة النظر أو بيان الرأي وذكر الحجة مثل: الإثبات والإنكار والمطابقة والاستفهام والملاحظة والتنويه والإجابة والتصويب والتفسير والتأويل... [٦].

الأفعال الكلامية في خطب الحجّاج بن يوسف الثقفي:

أفعال الأحكام أو الحكميات:

ومن أمثلتها في خطب الحجّاج قوله في خطبته بعد مقتل ابن الزبير:" ألا إن ابن

---

(١) عمر بلخير: *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*، ص١٥٩. و محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٦٩.

(٢) عمر بلخير: *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*، ص١٥٩. ومحمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٦٩- ٧٠.

(٣) محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، ص٧٠.

(٤) عمر بلخير: *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*، ص١٥٩.

(٥) المرجع السابق: ص١٥٩.

(٦) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٧٠.

الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتّي رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله واستكنَّ بحرم الله..."[١]، فالحجّاج هو ومن كلفه بمهمة قتل ابن الزبير وهو أمير المؤمنين الذي يمثل السلطة، قد رأوا وحلّلوا وحكموا بأن ابن الزبير قد خرج عن الطاعة؛ لذلك يستحق الموت، وتجدر الإشارة إلى أنّ الأفعال الكلامية الدّالة على الأحكام أو الحكميات تتناسب مع غرض التقرير والوصف مثل قول الحجّاج في خطبته:" ... لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغيّ"[٢]، فالحجّاج هنا حكم على أهل العراق بأنهم قوم ميالون للفتن والضلال والغي، وقد استعمل لذلك كلاما يصف فيه حالتهم النفسية وقد كان يحتوي على ثلاثة أفعال كلامية هي: أوضعتم، اضطجعتم، سننتم، وكلها تدل على وضعية ما أو صورة من الصور، وقوله أيضا:" إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم وإن أمنتم أرجفتم"[٣]، فالحجّاج في هذا المثال يحكم على أهل العراق بالشقاق والنفاق والخيانة، وقد أصدر حكمه هذا حتى قبل أن يرى الواقعة بعينه، وقوله كذلك:" ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالة، ما يمنعكم من إظهارها إلّا مخافتي: ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة"[٤]، فالحجّاج أطلق في هذا المثال حكمًا قد يكون تقديريًّا أو ظنيًّا، حيث نجده يحكم بأن أهل العراق سيقولون بعد سفره كلامًا جارحًا، ويبدو جازمًا ومتأكدًا من ذلك الحكم.

أفعال القرارات أو الإنفاذيات:

وهي كثيرة جدا في خطب الحجّاج– باعتبار الحجّاج يمثل السلطة الشرعية على أهل العراق– ومن أمثلتها قوله في خطبته:" فإياكم أن تزلّوا عن سَنَنٍ أقمناكم عليه فأقطع

---

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب ، ٢٨٧/٢.

(٢) المصدر السابق ، ٢٩٠/٢.

(٣) المصدر السابق ، ٢٩٤/٢.

(٤) المصدر السابق ، ٢٩٩/٢.

عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار، وأقيم من أَوَدِكُم ما يُقيم المثقف من أود القناة بالنّار"(١)، فالفعل الكلامي الظاهر من هذا المثال هو التحذير من الخروج عن الطاعة، والأمثلة كثيرة جدا عن الفعل الكلامي المتضمن التحذير والتهديد، مثل قول الحجّاج في خطبته التي قال فيها:" فإياي وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات وقالا وقيلا، وما تقول وفيما أنتم وذاك"(٢)، فهذا المثال أيضا كما يبدو فعل كلامي تحذيري، وقوله أيضا في خطبته:" أيها الناس إياكم والزيغ فإن الزيغ لا يحيق إلا بأهله، ورأيتم سيرتي فيكم وعرفت خلافكم وطيبكم، على معرفتي بكم، ولو علمت أن أحدًا أقوى عليكم مني أو أعرف بكم ما وليتكم، فإياي وإياكم، من تكلم قتلناه، ومن سكت مات بدائه غمًا"(٣).

ومن أمثلة القرارات كذلك النصح والوعظ، ونجده في خطب الحجّاج، ومنها قوله:" أيها الناس قد أصبحتم في أجل منقوص، وعمل محفوظ، ربّ دائبٍ مضيع، وساعٍ لغيره، والموتُ في أعناقكم، والنارُ بين أيديكم، والجنةُ أمامكم، خذوا من أنفسكم لأنفسكم، ومن غناكم لفقركم ومما في أيديكم لما بين أيديكم..."(٤)، وقوله في الخطبة أيضا:" امرؤ فكّر فيما يقرؤه غدًا في صحيفته ويراه في ميزانه، امرؤ كان عنده همِّه آمرًا، وعند هواه زاجرًا، امرؤ أخذ بعنان قلبه، كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى حقٍّ تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفَّه"(٥)، فالحجّاج استخدم أفعالا لغوية مثل: فكر، قرأ، رأى، أخذ، قاد، تبع، كفّ، وكلها تدل على ممارسة أو تنفيذ شيء، وكلها ارتبطت في هذا المثال بالوعظ والنصح.

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٨٧-٢٨٨.

(٢) المصدر السابق ، ٢/٢٩٠.

(٣) المصدر السابق ، ٢/٢٩٨.

(٤) المصدر السابق ٢/٣٠١.

(٥) المصدر السابق ، ٢/٣٠٢.

أفعال التعهد أو الوعديات:

جاء هذا النوع من الأفعال الكلامية بكثرة على صيغة القسم الذي ورد في خطب الحجّاج ومنها قوله في خطبته:" أما والله لأحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم عصب السلمة"(١)، فالحجّاج في هذا المثال يتعهد بأن يذيق أهل العراق العذاب الشديد القاسي، وقوله في الخطبة نفسها:" أما والله لتستقيمُن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده"(٢)، وقوله أيضا:" والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه، إلا ضربت عنقه"(٣)، فالحجّاج يقسم ويتعهد بأن من يعصي أمره من أهل العراق سيكون مصيره الموت، وقوله أيضا في خطبته:" أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا من باب واحد فأخذوا من باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالا من الله"(٤)، فالشيء الملاحظ هو أن أفعال التعهد في هذه الأمثلة والأمثلة الأخرى مرتبطة دائما بشرط لتحقيقها وتجسيدها من طرف الحجّاج نفسه، فمثلا قوله:" عذيري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رَجَز الأعراب، أما والله لو أدركته لضربت عنقه- يعني عبد الله بن مسعود-"(٥)، فالحجّاج هنا يتعهد بضرب عنق عبد الله بن مسعود ولكن بشرط إدراكه وهو يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب، ويلاحظ الباحث أن هذا الحقل (التهديد والوعيد والتقريع) يشغل حيزا كبيرا من خطب الحجاج، وهي مفردات لا تحمل أقل من الموت.

أفعال السلوك أو السلوكيات:

كانت قليلة في خطب الحجّاج حيث تجسدت في بعض المواقف التي تحدث فيها

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٩٠.

(٢) المصدر السابق ، ٢/٢٩١.

(٣) المصدر السابق ، ٢/٢٩٢.

(٤) المصدر السابق ، ٢/٢٩٦.

(٥) المصدر السابق ، ٢/٢٩٦.

الحجّاج نفسه عن شعوره تجاه مخاطبيه ومنها قوله في خطبته التي قال فيها:" يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفي عنها المدر ويباعد عنها الحجر، ويكنّها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من الذئاب، يا أهل العراق أنتم الُجنّة والرداء، وأنتم العدة والحداء"(١)، فالحجّاج هنا يعبر عن شدة حبه لأهل الشام من خلال عدة أفعال هي: ينفي، يباعد، يكنّ، يحمي، يحرص، وهي كلها أفعال جاءت في هذا السياق لتعبر عن الحبّ والودّ، أما قوله:" أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وأما أنا بالمستوحش لعداوتكم ولا المستريح إلى مودتكم"(٢)، وقوله كذلك:" وأنا والله لرؤيتكم أكره، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين ما حمّلت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر إليكم، والله أسأل حسن العون عنكم"(٣)، ففي هذين المثالين يعبر الحجّاج عن مدى مقته وكرهه لأهل العراق حتى أنه لا يطيق النظر إليهم.

أفعال الإيضاح أو التّبيينات:

هناك من يسمّيها أفعال العرض، وهي كثيرة جدا في خطب الحجّاج ومن أمثلتها في خطبته قوله:" موج ليل التطم، وانجلى بضوء صبحه، يا أهل الحجاز كيف رأيتموني؟ ألم أكشف ظلمة الجور وطخية الباطل بنور الحق؟"(٤)، فالحجّاج يبيّن لأهل الحجاز كيف كشف الحق وأزال الظلمة، ظلمة الجور ولكنه استعمل التساؤل في هذا التوضيح وهذا الكلام، وقوله أيضا:" فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز؟"(٥)، فالحجّاج يبين لأهل العراق أنه لم يعد ينفعهم شيء في

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٩٤- ٢٩٥.
(٢) المصدر السابق ، ٢/٢٩٥.
(٣) المصدر السابق ، ٢/٢٩٧.
(٤) المصدر السابق ٢/٢٨٧.
(٥) المصدر السابق ، ٢/٢٩٣.

حياتهم، لا تجربة يستفيدون منها ويأخذون منها العبر، ولا وقعة ولا إسلام، ولا بيان، ولم يكن له من بد لتوضيح هذه الأمور إلا بالاستفهام، وكذلك قوله أيضا:" يا أهل الكوفة، إنّ الفتنة تلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف"(١)، فالحجّاج يبين ويؤكد لأهل العراق أن الفتنة منبتها النجوى والشكوى، وأن نهايتها الموت بالسيف، وقوله كذلك:" قال الله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)(٢)، فهذه لله وفيها مثوبة، وقال: (وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا)(٣)، وهذه لعبد الله وخليفة الله عبد الملك بن مروان"(٤)، فكلام الحجّاج هذا فيه شرح وتأويل لآيات قرآنية حيث يعرض الآية الكريمة ثم يفسرها ويوضح معناها.

ومن أفعال الإيضاح أيضا الوصف، وهو متنوع في خطب الحجّاج، خاصة وصفه لأهل العراق في مواقف عديدة، ومنها قوله في خطبته:" إذ ولّيتم كالإبل الشّوارد إلى أوطانها النّوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ عن بنيه، حتى عضّكم السلاح وقصمتكم الرّماح، ثم يوم دير الجماجم، وما يوم دير الجماجم، بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله..."(٥)، فهذا المقطع الطويل من الخطبة يصف فيه الحجّاج حال أهل العراق أثناء الحروب والغزوات، منها يوم الزاوية وحرب دير الجماجم، وقد استعمل فيها أفعالا لغوية عديدة منها ولّيتم، لا يسأل، لا يلوى، عضّكم، قصمتكم، يزيل، يذهل، وهي كلها أفعال تتحدث عن حالة أهل العراق.

دور التّداوليّة في ترابط النّصّ وتماسكه:

إن تحقيق الوحدة النصية ككل متماسك يرتكز على عدة عناصر لغوية وغير لغوية، تسهم كلها في إيجاد نوع من التماسك بين الوحدات الجزئية المكونة للنص،

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٩٥.

(٢) سورة التغابن، الآية١٦.

(٣) سورة التغابن، الآية١٦.

(٤) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب*، ٢/٢٩٥– ٢٩٦.

(٥) المرجع السابق ، ٢/٢٩٤.

وباعتباره بنية معقدة ذات أبعاد أفقية وتداخل دلالي متلاحم، فإن كل دراسة لذلك الترابط لنص ما، تكون قاصرة إذا لم تتعد المستوى البسيط من مستويات التحليل والوصف، بل لا بد من صرف النظر كذلك جهة العناصر الخارجية التي تتحقق في صورة مجموعة من الروابط اللفظية، إلى جوار العناصر الداخلية التي تتمثل في العلاقات الباطنية التي تقيم شبكة متداخلة شديدة التعقيد وتتضافر هذه الروابط اللغوية مع الروابط غير اللغوية لتحقيق أكبر قدر من الاتساق والانسجام(١). وكان لعلماء العربية قديما وحديثا جهود واضحة في إبراز أهمية التماسك النصي(٢) ولّما كان للترابط اللغوي هذه الأهمية في إظهار مدى تماسك النصوص وانسجامها، كان لزاما علي الباحث وهو بصدد دراسة خطب الحجاج بن يوسف الثقفي، محاولة تتبع وإظهار هذه الروابط، التي تعتبر الضامن في تماسك بناء النص وعالمه.

سأحاول تتبع وسائل الاتساق؛ لأنها تسمح لنا بإدراك العلاقات الرابطة بين الجمل داخل النص؛ لأن الاتساق هو: "ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكّلة لنصّ أو خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية(الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب أو خطاب برمته"(٣)، وسأتناول منها:

١- الإحالة:

تعتبر الإحالة مادة أولية يتكىء عليها محلل النص كي يثبت مدى اتساق نصه، وهى من أهم الأدوات التي تحقق هذا الاتساق و تتوفر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصة الاتساق،

---

(١) سعيد حسن بحيري: *ظواهر تركيبية في مقامات أبي حيان التوحيدي "دراسة في العلامة بين البنية والدلالة"*، مجلة الأنجلو المصرية، ١٩٩٦، ص٢٣٦.

(٢) من أمثال :عبد القاهر الجرجاني والرازي والسيوطي وابن طباطبا والجاحظ وغيرهم.

(٣) محمد خطابي: *لسانيات النص "مدخل إلى انسجام الخطاب"*، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١، ص٥.

ويقول "جون لوينز " في سياق حديثه عن المفهوم التقليدي للإحالة: إنها العلاقة القائمة بين الأسماء ومسمياتها، إذ أن الأسماء تحيل إلى المسميات. وتطلق تسمية العناصر الإحالية – حسب الأزهر الزناد – على قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب، فشرط وجودها هو النص، ويتصل العنصر الممتلك للعناصر الإحالية بعنصرين ضروريين محال ومحال إليه، وكلاهما يمتلك نفوذًا داخل النص، وتحديدهما موكول إلى ثقافة المتلقي، وسياق النص.

كما تطرق "ميرفى "□□□□□□ للإحالة واعتبرها تركيبًا لغويًّا يشير إلى جزء ما ذُكر صراحةً أو ضمنًا في النص الذى يتبعه أو الذى يليه، وذلك أن العنصر المحال يعتمد على عنصر آخر محال إليه بحيث لا يمكن فهم الأول إلا بعد العودة على مما يحال عليه، وذلك لأن العناصر المحالة لا تملك دلالة مستقلة عن غيرها بل هي تابعة في دلالتها إلى عناصر أخرى. [1]ومن الجدير بالذكر من " أول من أشار إلى الإحالة بوصفها مصطلحًا لغويًّا نحويًّا فى التراث العربى هو ابن رشيق (٤٥هـ) بقوله : ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة ، ويشير به إشارة ؛ فيأتي به كأنه نظم أو شبيه به ... فهذا النوع من أبعد التضمينات كلها وأقلها وجودًا "[2]، وتنقسم الإحالة إلى قسمين:

١. الإحالة داخل النص □□□□□□□□التي بدورها تنقسم إلى قسمين:

أ–إحالة على السابق (قبلية) □□□□□□□□ ، وتعود على مفسر سبق التلفظ به.

ب–إحالة على اللاحق (بعدية) □□□□□□□□□، وتعود على عنصر إشاري مذكور في النص.

---

(١) محمود بو ستة: الاتساق والانسجام في سورة الكهف، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م، ص٦١.

(٢) د. محمد سالم أبو عفرة: السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ م، ص٢٨.

٢. إحالة خارج النص (خارج اللغة)وتسمى مقامية / معجمية □□□□□□□□، وتجمع كل الحالات التي تعود على مفسر دال على ذات، وهى متوفرة في كل النصوص وهذا لا يعنى أنها ضرورية كما لا يعنى أن نوعى الإحالة (مقامية و نصية)متساويان بحيث نلغى جميع الفروق بينهما.

وفي حالة الرصد للإحالات في خطب الحجاج سنقف على المئات منها، لذلك سأختار نماذج منها من خطبه ومن الأمثلة على الإحالة القبلية قوله:

استخدم الحجاج الإحالة إلى جمع الضمير المخاطب بـ(أنتم)، وهذا أمر طبيعي؛ لأن الخطاب موجه إلى من حوله من الناس، ومن أمثلة ذلك":

"إن الشيطان قد استبطنكم فحشاكم نفاقا وشقاقا، وأشعركم خلافا"(١)

كما استخدم الإحالة إلى ضمير الغائب المفرد(هو)، مثل قوله:

"فخالط اللحم والدم والعصب، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع، فعشش (٢) في إحالة منه إلى الشيطان الذي أفسد الأنفس وتمكن منها وتغلغل فيها، وأشبعها نفاقًا وشقاقًا.

واستخدم الإحالة إلى ضمير المفرد الغائب المؤنث كقوله في أهل العراق:" ...إذا ولّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها النوازع إلى أعطانها (٣)

واستخدم الإحالة إلى ضمير المفرد المتكلم وقد وردت في قوله:" ألستم أصحابي بالأهواز.....وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسلون لوذا؟(٤)

ومن نماذج الإحالة البعدية قوله :

---

(١) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب*، ٢٩٣/٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٩٣/٢.

(٣) المصدر السابق ، ٢٩٤/٢.

(٤) المصدر السابق ، ٢٩٤/٢.

" أما والله لو أدركته لضربت عنقه – (يعنى عبدالله بن مسعود)" [١].

حيث ذكر الضمير في كلمة(عنقه) التي جاءت في البداية وتعود إلى كلمة(عبدالله بن مسعود)المتأخرة عنها في السياق.

أما بالنسبة للإحالة المقامية فقد جاءت في قوله:

"إن الله كفانا مئونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا مئونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا."[٢]

جاء ضمير المتكلمين "نا" حيث يعود على الحجاج وفريقه، ولا وجود لهاتين الكلمتين في السياق. ولكنهما قد فهما من خلال سياق النص نفسه.

وفى قوله أيضا :"أرنى الغى غيا فأجتنبه، وأرنى الهدى هدى فاتبعه ، ولا تكلني إلى نفسى فأضل ضلالا بعيدا." [٣].

حيث جاء ضمير المتكلم الياء في قوله "أرنى"، "تكلني " إشارة إلى الحجاج نفسه دون ذكره في سياق الخطبة.

وقى قوله أيضا :"ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهّالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون ما لي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أمرتم." [٤]

حيث جاءت "الكاف في كلمات" علماءكم ، جهالكم ، شراركم" تعود إلى كلمة لم تذكر في سياق الكلام والتقدير "علماء وجهال وأشرار البصرة".

٢- أسماء الإشارة :

وسيلة من وسائل التماسك النصي لتنوعها ما بين أسماء إشارة للقريب، وأخرى للبعيد

---

(١) المصدر السابق، ٢٩٦/٢.

(٢) المصدر السابق، ٢٩٦/٢.

(٣) المصدر السابق، ٣٠٣/٢.

(٤) المصدر السابق، ٢٩٦/٢.

وثالثة للمتوسط وقد وردت أسماء الإشارة في خطب الحجاج ومن ذلك في قوله:" هذه لله وفيها مثوبة"[١] ، وقوله: "عذيري من أهل هذه الحميراء، يرمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول: يكون إلى أن يقع هذا خير..." [٢] وفى قوله أيضا:" هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، وهذه الشمس التي طلعت على التَّبابعة والأكاسرة." [٣]

٣- الوصل:

الوصل: هو "عطف جملة على جملة أخرى بأحد حروف العطف"[٤]، وبعبارة أخرى هو: "عطف الجمل بعضها على بعض أو عدم قطع النّطق عند آخر كلمة"[٥]. وطرق هذا الأمر لمعرفة مدى تماسك البني التركيبية في خطب الحجاج عبر ما يسمّى بالوصل؛ لأنها أداة تبين مدى نُظُم صوغ المتتاليات، وطيفية تضافر البنى والطرق التي تتعالق بها مكونات النص[٦] وقد وردت في خطب الحجاج بن يوسف الثقفي الكثير من أدوات الربط ، منها: الواو، الفاء، واللام، وغيرها

وتعدّ الواو من أكثر الأدوات ورودًا في خطب الحجاج وفي كلام العرب، وقد أسهمت إسهامًا فعّالًا في بناء عناصر الخطاب بناءً محكمًا، لأنها تقوم بوظيفتين مهمتين: أولاهما: ربط الأجزاء، والثانية: تكثيف الخطاب عن طريف الاختزال، أي تلافي تهلهل

---

(١) المصدر السابق ، ٢/٢٩٥.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٩٦.

(٣) المصدر السابق، ٢/٣٠١.

(٤) عبد القاهر الجرجاني: *دلائل الإعجاز*، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ٢٠٠٤، ص٢٢٢.

(٥) محمد ألتونجي: *معجم علوم العربية*، دار الجيل، ط١، ٢٠٠٣، ص٤٩٧.

(٦) حسن ناظم: *البنى الأسلوبية، دراسة في أنشودة المطر للسيّاب*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٢، ص١٤٥.

الخطاب، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان لدينا خطاب مملوء بالحشو[١]. وأضرب لذلك مثالا من خطبة الحجاج بعد قدومه إلى البصرة، حيث يقول:" *إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعّد ثمّ لا أعفو*"[٢]. وكان ينبغي أن ترد هذه الجمل بهذا الشكل: (إني أنذر ثم لا أنظر، و"إني" أحذر ثم لا أعذر و"إني" أتوعد ثم لا أعفو...)، فالحجاج لجأ إلى استخدام الواو للابتعاد عن تكرار "إني"، بحيث أسهمت الواو في تجنب هذا التكرار، وساعدت على تماسك الجمل وتتابعها. ومثال آخر في خطبته بعد وقعة دير الجماجم حيث يقول فيها: "*إنّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشّغاف..*" [٣] بديلا من أن تأتي هذه الجمل بالشكل:" إنّ الشيطان قد استبطنكم، فخالط اللحم وخالط الدم وخالط العصب وخالط المسامع وخالط والأطراف وخالط الأعضاء وخالط الشّغاف.." فيلاحظ أن الواو ساعدت على تجنب تكرار الفعل "خالط"، وبالتالي ساعدت حقيقةً على تجنب الحشو.

أما الربط بالفاء واللام فيسمى بالعطف السببي أو الربط التعليلي من خلال تتابع الجمل ومن خلال سياقها الذي وردت فيه، ومن أمثلته من خطبة الحجاج بعد قتله ابن الزبير، يقول:" لقد وطئكم الحجاج وطأة مشفق، وعطفة رحم، ووصل قرابة، فإياكم أن تزلّوا عن سنن أقمناكم عليه، فأقطع عنكم ما وصلته لكم بالصارم البتار.."[٤] فالسبب هنا هنا أن الحجاج جاء بالخير لأهل الحجاز، وكان عطوفًا رحيمًا معهم وفي معاملته –حسب قوله–، لذلك استدعى تحذيرهم من الغدر وتغيير ذلك الخير إلى الشر. هذا بالإضافة إلى استخدام الحجاج لأدوات ربط أخرى مثل أو، ومن ذلك قوله :" فكيف تنفعكم تجربة أو

---

(١) محمد خطابي: *لسانيات النص*، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب*، ٢/٢٩٢

(٣) المصدر السابق، ٢/٢٩٣.

(٤) المصدر السابق، ٢/٢٨٧-٢٨٨.

تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو ينفعكم بيان؟"[١] وقوله أيضا :" هل استخفكم ناكث أو استغواكم غاو أو استنصركم ظالم أو استعضدكم خالع..." [٢]. حيث استخدم حرف العطف "أو" لتخيير أتباعه ما بين الحق والباطل من وجهة نظره.

٤- التكرار:

يعدّ التكرار وسيلة تعبيرية وتقنية فنية بالغة القيمة بخاصة إذا استطاع المبدع التحكم فيه بناء على حاجة السياق النفسي والجمالي إليه، ومن ثم فإن العبارة المكررة ينبغي أن تكون من قوة التعبير وجماله ومن الارتباط بغيرها سياقيًّا بحيث تصمد أمام الرتابة المقيتة[٣]. ويعنى به إعادة عنصر معجمي ما أو مرادفه أو شبهه أو عنصر مطلق أو اسم عام، والحق أن العرب القدماء قد التفتوا إلى هذا المظهر من المظاهر البيانية مدركين أهميته في تماسك النص وتقوية المعنى.

ومن ينظر إلى خطب الحجاج يجده استخدم التكرار في أغلب خطبه، وهناك نوعان من التكرار، هما: التكرار المحض(تكرار اللفظ بعينه)، وعبارات مكررة. فالتكرار المحض تمثل في تكرار العديد من الكلمات التي شكلت تناسقًا بين لغة هذه الخطب وجعلها تبدو وكأنها خطبة واحدة، وأول هذه الكلمات هو تكرار كلمة لفظ الجلالة "الله"، وهذا يدل على أن المهمة التي أوكلت للحجاج كانت نصب عينيه، وهي إعادة توحيد أهل العراق تحت راية الخلافة الأموية، ووأد الفتن بكل أشكالها، لذلك كان يستعمل لفظ الجلالة "الله" في أغلب كلامه إما ترغيبًا ووعظًا وإما ترهيبًا وتخويفًا، فمثلا في قوله: "فاتقوا الله ما استطعتم، فهذه لله وفيها مثوبة.." [٤]. فالحجاج يذكر لفظ الجلالة "الله" ليرغب الناس في الطاعة التي تورث الثواب والنّجاة. واللفظة الثانية التي كررت بكثرة هي القسم الذي تكرر كثيرًا في خطبه،

---

(١) المصدر السابق، ٢/٢٩٣.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٩٤.

(٣) نعمان بوقرة: *قراءة لسانية نصية في مجموعة تراتيل الغربة للشاعر علي عقلة*، مجلة الموقف الأدبي، المجلد ٣٢، العدد ٣٨٦ (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٣) ، ص٦٢.

(٤) أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب*، ٢/٢٩٥.

وهذا يعدُّ أمرًا طبيعيا؛ لأن مهمة وأد الفتن تستدعي صرامةً في القول كما في الفعل، فكان الحجاج يكثر من القسم الذي استخدمه في التهديد والوعيد وأحيانا قليلة للنصح، وأحيانا أخرى للصراحة وقول الحقيقة، ومن أمثلته في التهديد والوعيد" أما والله إني لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله... وإني والله لا أعد إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت... [(١)]، ليجتمع فيه أقوىطرق التأكيد مع التنبيه، فتصل به إلى أقصى غايات الإثبات واللفت، مع علو نبرة التخويف والتهديد، وانعكاس زهو النفس، وهي تكشف للآخرين عما تتمته به من جلادة وصلابة، والقسم هنا بلفظ الجلالة الأعظم؛ ليلقي بظلاله على المقسم عليه، فيكسبه تعظيما وتفخيما. وأيضا قوله واعظًا: "امرؤ حاسب نفسه امرؤ راقب ربه امرؤ زور عمله امرؤ فكر فيما يقرأه غدا في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عند همه آمرا وعند هواه زاجرا امرؤ آخذ بعنان قلبه. [(٢)]" من خلال تكرار لكلمة "امرؤ".

أما العبارات المكررة فاللافت للانتباه هو تكرار عبارات النداء، ومنها "أيها الناس" و"أهل العراق" و"أهل الكوفة" وأخرى. وهذا عمل مقصود من طرف الحجاج وهو جعل كل الأفراد معنيين بكلامه، ولإسقاط أي حجة من أنّ الكلم موجه إلى طائفة دون أخرى. وعليه يتضح أن التكرار سواء الكلمات أو العبارات في أغلب خطب الحجاج ساعد على المحافظة على استمرارية الخطاب ووحدته وتماسكه.

٥- أدوات المقارنة :

هي عنصر من عناصر الاتساق النصي فهي شكل من أشكال الإحالة إلى جانب الإحالة في الضمائر والإحالة الإشارية، وتتضمن المجموعة نفسها من الاحتمالات. ففي المقارنة يوجد المحيل عليه في المقام أو في النص. فإذا وجد داخل النص، تكون الإحالة إذن إما على السابق وإما على اللاحق. وقد استخدمها الحجاج في مواضع محددة ومنها قوله: "وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة"[(٣)] وفى قوله أيضا:" إني رأيت الصبر عن

---

(١) المصدر السابق، ٢/٢٨٩-٢٩٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٨٩-٣٠٢.

(٣) المصدر السابق، ٢/٢٨٩-٢٨٧.

محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله"[1] وفى قوله أيضا:" فقال لأزواجكم أطيب من المسك، ولأبناؤكم آنس بالقلب من الولد"[2] حيث استخدم صيغة اسم التفضيل وهى أداة من أدوات المقارنة.

الخاتمة:

وقد انتهت الدِّراسة إلى عددٍ من النَّتائج:

- للأبعادِ غير اللُّغويَّة الَّتي تتَّصِل بالسِّياق والمقام المُصاحب للنَّصِّ دور رئيس في إنتاجِ المعنى، وإيضاحِه.
- الثراء اللغوي الموجود في خطب الحجاج يدل على أن لديه موهبة فطرية، وتنوع فكري خصب جعلاه خطيبا متفردًا.
- بينت لنا ظاهرة الاستلزام الحواري كيف يتم التمييز بين المعنى الحرفي والمعنى المراد من كلام الحجاج.
- أسهمت الأفعال الكلامية في إظهار التنوع اللغوي في كلام الحجاج، وانسجامه مع المواقف التي يكون فيها.
- دراسة الأفعال الكلامية، بيّنت شيوع أفعال الإيضاح، وهو أمر طبيعي؛ لأن الحجاج يمثل السلطة، لذلك يبيّن ويفسر ويوضح المطلوب، إضافةً إلى ورود أفعال القرارات، والحكميات، والوعديات، والسلوكيات.
- أسْهمت الأفعال الكَلاميَّة فِي بِنَاء نصّ (الخطب الحجاجية) وتماسُكه من خلال الاعتماد على القرارات، والحكميات، والوعديات، والسلوكيات ، وتجلّى ظهورها في الجانب الحواريّ الذي اعتمد عليه.

---

(١) المصدر السابق، ٢/٢٨٩-٣٠٢.

(٢) المصدر السابق، ٢/٢٨٩-٢٩٥.

المصادر والمراجع.

- آن روبول، وجاك موشلر: *التداولية اليوم علم جديد في التواصل*، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة، بيروت– لبنان ط١، ٢٠٠٣.
- أحمد زكي صفوت: *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة*، العصر الأموي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٣٣م.
- أحمد المتوكل: *آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات، ط١، ١٩٩٣م.
- الأزهر الزناد: *نسيج النص "بحث فيما يكون به الملفوظ نصًّا"*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
- إيليا حاوي: *فن الخطابة وتطوره عند العرب*، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت، ١٩٩٧.
- الجلالي دلاش: *مدخل إلي اللسانيات التداولية*، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢م.
- جمال بن محمد أبو عبد الرحمن: *سيرة الحجّاج بن يوسف الثقفي ماله وما عليه*، دار الكتب العالمية، بيروت، ط١، . ٢٠٠٤م.
- جورج يول: *التداولية* ، ترجمة د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
- جيليان براون وجورج بول: *تحليل الخطاب*، ترجمة: لطفي الزليطي، النشر العلمي والمطابع، د. ط، ١٩٩٧.
- حسن ناظم: *البنى الأسلوبية، دراسة في أنشودة المطر للسيّاب*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٢.
- راضية بو بكري: *التّداولية وتحليل الخطاب الأدبيّ، مقاربة نظرية*، ضمن أعمال ملتقى اللغة العربية والمصطلح، ٢٠٠٢م، منشورات جامعة عنابة، ٢٠٠٦م.
- راضية خفيف: *التداولية في اللسانيات الحديثة*، مجلة اللسانيات واللغة العربية، منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار عنابة، العدد٢، ٢٠٠٦م.
- د. سامي شهاب أحمد: *التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيميائية*، بحث ضمن كتاب: التداولية في البحث اللغوي والنقدي، إعداد وإشراف:

بشرى البستاني، مؤسسة السياب للطباعة والنشر، لندن، ط١، ٢٠١٢.
❖ ستيفن ك. ليفنسون: *البرجماتية اللغوية*، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق ،القاهرة، ط١، ٢٠١٥.
❖ سعيد حسن بحيري: *ظواهر تركيبية في مقامات أبي حيان التوحيدي "دراسة في العلامة بين البنية والدلالة"*، مجلة الأنجلو المصرية، ١٩٩٦.
❖ شوقي ضيف: *الفن ومذاهبه في النثر العربي*، دار المعارف، مصر، د. ط، د.ت.
❖ صلاح إسماعيل: *نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس*، دار قباء للطباعة، ط١، ٢٠٠٧.
❖ طه عبد الرحمن: *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام*، المركز الثقافي العربي– المغرب، ط٢، ٢٠٠٠.
❖ عبد القاهر الجرجاني: *دلائل الإعجاز*، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ٢٠٠٤.
❖ عبد الهادي بن ظافر الشهري: *إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية*، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
❖ عمر بلخير: *تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية*، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٣م.
❖ فان دايك: *النص والسياق استقصاء البحث الدلالي والتداولي*، ترجمة: عبد القادر قنيني ،أفريقيا الشرق، د. ط،٢٠٠٠.
❖ فرانسواز أرميتكو: *المقاربة التداولية*، ترجمة: سعيد علوش، الرباط، مركز الإنماء القومي، ١٩٨٦.
❖ الفيروز آبادي: *القاموس المحيط*، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف د. محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م.
❖ ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي: *النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية*، ترجمة: محمد راضي، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢.
❖ محمد ألتونجي: *معجم علوم العربية*، دار الجيل، ط١، ٢٠٠٣.
❖ محمد خطابي: *لسانيات النص "مدخل إلى انسجام الخطاب"*، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١.
❖ د. محمد سالم أبو عفرة: *السبك في العربية المعاصرة بين المنطوق والمكتوب*، مكتبة الآداب القاهرة ، ط١ ، ٢٠١٠ .
❖ محمد العمري: *دائرة الحوار ومزالق العنف، كشف أساليب الإقناع والمغالطة، مساهمة*

في تخليق الخطاب، مطبعة أفريقيا الشرق، ط١، ٢٠٠٢.

❖ محمود أحمد نحلة: *آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر*، دار المعرفة الجامعية، د. ط، ٢٠٠٢م.

❖ محمود بو ستة: *الاتساق والانسجام في سورة الكهف*، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ .

❖ محمود زيادة: *الحجّاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه*، دار السلام الأزهر، مصر، ط،١، ١٩٩٥م.

❖ محمود عكاشة: *الفلسفة التداولية وعلم الكلام*، المجلة العربية مدادعدد٣، يوليو ٢٠١٨.

❖ مسعود صحراوي: *التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي)*، دار الطليعة ، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

❖ معاذ بن سليمان الدخيل: *منزلة معاني الكلام في النظرية النحوية العربية (مقاربة تداولية)*، نادي القصيم الأدبي – السعودية ودار محمد علي للنشر، ط١ ، ٢٠١٤.

❖ ابن منظور: *لسان العرب*، طبعة دار المعارف، د.ت.

❖ ميرود سعاد: *الاستلزام الحواري في سورة طه(تحليل تداولي وفق نظرية غرايس)*، مجلة المدونة، م٥/ع١، ٢٠١٨.

❖ نعمان بوقرة: *قراءة لسانية نصية في مجموعة تراتيل الغربة للشاعر علي عقلة*، مجلة الموقف الأدبي، المجلد ٣٢، العدد ٣٨٦ (٣٠ يونيو/حزيران ٢٠٠٣).

❖ : *اللغة ومنطق الاستعمال في ضوء النظرية التصويرية وأفعال الكلام*، مجلة اللسانيات واللغة العربية، منشورات جامعة عنابة، العدد٢، ٢٠٠٦م.

❖ النويري، أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين: *نهاية الأرب في فنون الأدب*، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م.

❖ يعقوب فام: *البرجماتية أو مذهب الذرائع*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨.